من السيد: عاشور منصورية

أستاذ بقسم التاريخ جامعة باتنة 1 الحاج لخضر

الإيمايل : achour.mansouria@gmail.com

عنوان الورقة البحثية: **توظيف المنهج الكمي في البحث في ميدان العلوم الإنسانية بين الرغبة والمحاذير**

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد

أحيل إلى اللجنة العلمية الموقرة الورقة البحثية كاملة والتي عنوانها

توظيف المنهج الكمي في البحث في ميدان العلوم الإنسانية بين الرغبة والمحاذير، وهي ضمن المحور الثاني، **عرض مختلف مناهج العلمي في العلوم الانسانية**.

الملخص:

في رأي علماء المناهج وخبراء توظيفاته البحثية في ميادين العلوم المختلفة ضرورة تبني الباحث لنوع المنهاج منذ بداية بحثه، مراعيا المعرفة الآنية للمنهج العلمي وما يحوزه من عمليات عقلية، تتسلمها الرؤية والتحليل النسقي، لتتوسع للاستنباط والاستدلال المنطقي والرياضي، وممارسة ذلك كله في الجانب الشكلي للموضوع المعروف بالمنهجية، وماهي مدارات استعمال المنهج الكمي في العلوم الانسانية في تحقيق الصدق والمعقولية في فهم وتفسير الظاهرة الإنسانية؟ هل توجد محاذير يرجى تجاوزها؟

وعليه فإن المداخلة يكون النسق المعرفي فيها منفتحا على:

1- تعريف المنهج أو المناهج.
2- واشكالات توظيف المنهج الكمي في العلوم الانسانية بين الرغبة والمحاذير.

الكلمات المفتاحية: المنهج العلمي، المنهجية، المنهج الكمي. البحث العلمي.

Summary

In the opinion of methodologists and experts in its research applications in various fields of science, it is

necessary for the researcher to adopt the type of method from the beginning of his research, taking into account the immediate knowledge of the scientific method and the mental processes it possesses, which are received by vision and systematic analysis, to expand to deduction and logical and mathematical reasoning, and to practice all of that in the formal aspect of the known subject.

With methodology, what are the approaches to using the quantitative approach in the human sciences to achieve honesty and reasonableness in understanding and interpreting the human phenomenon? Are there any caveats please ignore? Accordingly, the cognitive system in the intervention is open to:

1- Definition of the curriculum or curricula.
2- The problems of employing the quantitative method in the human sciences between desire and caveats.

Keywords: scientific method, methodology, quantitative method. Research

مقدمة

من بين أبرز السمات التي تطبع المعرفة التاريخية التجدد يطغى عليه التحيين واستخدام آخر ما يتوصل إليه من حيث الاستخدامات التي تضيف التطور والتصور في ما استجد من تغيرات ظرفية متداولة، وهي حركية في البحث التاريخي، لعل تدفع

به لتمثل هوية مستقلة، يتموضع بين مختلف العلوم والمعارف الإنسانية المتسمة بصقل أفكاره، وانفتاح آفاقه، وتطور طرْق موضوعاته، والمرتبطة بتطور البشرية منذ آواخر ق18، ويمكن رصد ما نتج عذ ذلك في آن يومنا، هي المقاربة الكمية للظواهر التاريخية، رغم حصوا تطور في تطبيق أساليبها، ومبادئها، عالميا وإقليميا، وما وصل له من تحقيق نتائج طيبة، إلا أن لم تشجع الباحثين كثيرا على الإقدام خاصة

1- تعريف المنهج:

لا نحفل كثيرا بإيراد جملة التعريفات المتعلقة بالمنهج، في هذه "العجالة"، غير أنه يرتجى توضـــيح المبتغى في إطار تبســـيط الرؤية، لربط مظاهر التجديد في المعرفة الإنسانية، المتعلقة بالاستفادة من التطور والتصور في المنهج؛ والذي يجري الاقتراب منه، ففي لغة العرب، أنه الطريق الواضح المستقيم، الذي يكون السير عليه ســهلا ميســورا للغاية المقصــودة([1])، وفي هذا المنحى جرى اســتعمال لفظ المنهج، للإدراك المعنى العام، في أنه الوسيلة التي تحدد الوصـول للغاية المعينة([2])، وجاءت من فعل نهجَ نهجًا تعني اتخذ منهاجًا أو طريقًا للوصول إلى غاية([3])

لتسهيل عملية إسراع في السَّير في الطريق لوضوح معالمه، فصار المنهج والنهج هو الطريق الطريق المستقيم، المستمر ([4])، و قد تداول المصطلح في حاضر الخطاب العربي معرفيا أن لفظ المنهج يقابل للفظة Method في الإنجليزية، وméthode في الفرنسية، جريا وراء تأصيل المعنى الاشتقاقي الأصلي على أنه الطريق، الذي نصل به للغرض المطلوبتجاوزا للصعوبات والعقبات المعترضة([5]).

2 ــ حاجة البحث التاريخي إلى المنهج الكمي:

لم تكن العلوم الانسانية والاجتماعية بعيدة عن التطورات المحققة بعد الثورة الصناعية، فتداعياتها، لم تحسم على الجانب المادي فحسب، بل شملت أيضا مجال الأفكار والمناهج بثورتها في ظهور التيارات والاتجاهات في منعرجات حاسمة، منهجيا وتقنيا، في اتساع آفاق البحث، وتعدّد طرق وأساليب معالجتها لمختلف الظواهر التي تتناولها بالدراسة.

---

[1] - جميل صليبا، «المعجم الفلسفي»، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1973م، ص:21.

[2] - مجمع اللغة العربية، «المعجم الفلسفي»، المطابع الأميرية، القاهرة، 1979م، ص:195.

[3] - منى أبو الفضل، و طه جابر العلواني، «نحو إعادة بناء علوم الأمة الاجتماعية والشرعية: مراجعات منهجية وتاريخية»، دار السلام، القاهرة، 2009م، ص: 29.

[4] -. فتحي ملكاوي،:المنهاج والمنهجية: طبيعة المفهوم وأهميته والمفاهيم والمصـــطلحات ذات العلاقة، في: المنهجية الإســـلامية، مجموعة مؤلفين، المعهد العالمي للفكر الإســـلامي ودار الســـلام، القاهرة، 2010مم، ج1، ص:29-108.

[5] - عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات، الكويت، طط3، 1977م، ص:10.

ولعل ما تحسن الإشارة إليها إثر هذه التحولات؛ انفتاح العلوم والمعارف على بعضها البعض، ليس لغرض الاحتكاك وتبادل الرؤى حول نقاط التقاطع بينها فحسب، بل أكثر من ذلك يحدث التفاعل بينها في فضاء واحد، مثلما حدث مع الحقل التاريخي الذي استفاد كثيرا من هذا الأمر، إن على صعيد الفكر، أو على صعيد المنهج والأدوات البحثية، وهو ما انعكس على طبيعة المواضيع التي صارت تُتداول، بل إنّ الأصوات أخذت تتعالى بضرورة إعادة قراءة ما دوّن بما يتوافق مع التطورات المنهجية والتقنية الحاصلة.

ويمكن أن نؤكد أهمية انفتاح حقل التاريخ، على مختلف العلوم، كون المشتغل في حقله "المؤرخ"، أخذ مكانه إزاء تمثل المستجدات مستفيدا منها لتطوير حقل تخصّصه، مثلما اصطلح عليه **بـ " التاريخ الكمي "**، وقد استفادت منه الدراسات التاريخية التي اعتمدت باحتكاكها الكبير بعلم الاقتصاد المتعلق بالإحصاء، كانت باكر الاهتمامات به بالولايات المتحدة الأمريكية، وعبر إلى أوروبا الغربية، ووسع من استعماله وانتشاره، استعمال اكتشاف الحواسيب التي انتشرت في شتى بقاع العالم، ولعل الوقت والجهد الذي تحصل عليه الباحث وراء تجميع العدد الكبير من مادة البيانات لهي اكبر الثمار[1].

قد نتفق أو نختلف في احتشام ظهور المنهج الكمّي في البحوث التاريخية خاصة في البدايات الأولى، لكن ينبغي الإقرار أنّ دائرة توظيفه في ازدياد مضطرد مع الزمن، خاصة بإلحاح من جملة من الباحثين والمفكرين، الذين رأوا حاجة تحيين المناهج البحثية التاريخية لتواكب وتوائم التحولات العلمية والفكرية العميقة التي يعيشها العالم اليوم، بضرورة الاستعانة بالمنهج الكمّي في معالجة المسائل التاريخية.

لكن علينا الاقتراب من معرفة بعض المفاهيم والمعطيات حول الإحصاء ومناهجه، حتى ندرك بروية نقاط تقاطعه مع حقل التاريخ، وفضاءات تفاعله معه، ومن ثمّ الاستعانة ببعض أساليبه وأدواته المنهجية، في حصر أبرز الأساسيات والخطوات التقنية والمنهجية التي تمكّن الباحث من الاستفادة من هذا العلم وأساليبه الرقمية والإحصائية، وتزيد في فرص فهم الحدث التاريخي وما اتصل به من ظواهر ضمن مختلف السياقات المنتجة له.

فالمنهج الكمّي في صورته النظرية يختصّ بجملة الأساليب التي يستند إليها الباحث في قياس الظواهر محل الدراسة[2]، بتركيزه على الطرق والأدوات المستخدمة في رصد المعطيات والمعلومات عن ظواهر أو عيّنات عنها على اختلاف أشكالها وصورها، لتعرض البيانات المرصودة في شكل أرقام، في مجموعة من الجداول

---

[1] عبد الله العروي، **مفهوم التاريخ: الألفاظ والمذاهب**، ط4، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2004، ص/ 137

[2] موريس أنجرس، **منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية**، ترجمة: بوزيد صحراوي وآخرون، ط2، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2006، ص: 100

والتمثيلات التي تصور ظاهرها وتسهل الوصول لتحليلها، وتمييز خصائصها، لمعرفة توجه النسق العام، في إطار العلاقة والتفاعل[1].

وينقسم الإحصاء بحسب الغاية التي يرومها الباحث منه إلى نوعين، الأول هو الإحصاء الوصفي، ويستعمل لغرض وصف الظاهرة أو العيّنة محل الدراسة، في التحري والتدقيق في رصد البيانات، والتي بموجبها نصل لدقة النتائج ، في أجود وصف ، في هذه النقطة، يعمل الإحصائي بالمزج بين عدة أساليب إحصائية في جمع البيانات وتبويبها[2]، بهدف نقلها من مجرد أرقام كمية، إلى تفاعل أعمق له دلالة تسهل الاستيعاب وإدراك الفهم عند العمل به[3]، وهو يختلف عن النوع الثاني الذي يعرف بالإحصاء الاستدلالي، أو العيني، والإحصاء الاستنتاجي، والإحصاء التطبيقي، وفيه يرتكز اهتمام الباحث بالاستناد إلى جملة من الأدوات والأساليب الإحصائية على تعميم النتائج التي حصّلها من معالجة عيّنة ما على كافة المجتمع الذي سُحبت منه[4].

- ولعل دوافع ازديد حاجة البحث التاريخي، في شقه المنهجي بالمقاربات الكمية، أن اعتقادا واسعا في البحثية الأكاديمية وغيرها أنّ الدراسات الكمّية تتميز بدقة ومصداقية كبيرتين، بداعي ارتباطها بالعلوم التجريبية، التي ساعدتها طبيعة مادتها في تجسيد تقنيات هذا المنهج بيُسر، وما حققه من نتائج باهرة التي توصلت إليها، وهو ما جعل معظم الباحثين في العلوم الإنسانية يعتقدون بأنّ**"نموّها ومصداقيتها مرهونان باستعمال أكثر للتكميم في بحوثها "**[5].
- أنّ كثيرا من المادة المصدرية التي يتعامل معها الباحث بما دُوّنت بها لا تُظهر أهميتها وقيمتها العلمية إلاّ من خلال حوسبتها والمساءلة الإحصائية الرقمية لها، إذ أنّها الأقدر على كشف خصائصها، ورسم الاتجاه العام للتغيرات التي تعبّر عنها، والعلاقة بين المؤثرات التي أفرزتها[6].
- طبيعة المادة العلمية والوثائقية التي توفرها المصادر التاريخية، التي يمكن في بعض أجزائها الخضوع للقياس والقراءة الرقمية، ونجاح التجارب الأولى لها.
- لم يكن غيّاب الوثائق عائقا أمام تجسيد هذا المنهج في حقل التاريخ، ومن أمثلتها الدراسة التي قام بها الباحث الأمريكي ريتشارد بوليت عام 1979، والمعنونة بـ **" التحول إلى الإسلام في العصور الوسطى"**، وانطلقت مقاربته الكمية فيها من تعقّب الحلقات التي تتحول فيها الأسماء ضمن سلاسل أنساب عيّنة مجتمع الدراسة التي اختارها لهذا الغرض إلى أسماء إسلامية[7].

---

[1] أحمد عبد السميع طبيّه، **مبادئ الإحصاء**، ط1، دار البداية، عمان، 2008، ص:13، مهدي محمد القصاص، **الإحصاء والقياس الاجتماعي**، كلية الآداب ، جامعة المنصورة، 2007، ص : 3، 13

[2] عماد توما كرش و آخران، **علم الإحصاء**، المعهد التقني نينوى، العراق، 2014، ص: 10

[3] عبد العزيز فهمي هيكل، **مبادئ الأساليب الإحصائية**، ط1، د .د.ن، لبنان، 1966، ص: 41

[4] مهدي محمد القصاص، المرجع السابق، ص : 12

[5] موريس أنجرس، المرجع السابق، ص: 101

[6] عبد الله العروي، المرجع السابق، ص: 145

[7] مصطفى زايد، **التاريخ الكمي مع تطبيقات في التاريخ الإسلامي**، القاهرة، 2000، ص: 133

- أنّ اعتماد المنهج الكمّي يندرج ضمن الأساليب التي دعا لها لغرض قراءة التاريخ الإسلامي إلى تبنيها، لأنّ ذلك من شأنه أن يقوّم الكثير من الأخطاء والتصورات، التي أوجدها ارتباط أكثر المادة التي جاءت بعها المدونات البلاطية، المشدودة على ّأنها مسلمات مقطوع بصحتها وصدق مروياتها[1].
- يجرى فهم الظواهر التاريخية في عمقها، بوضعها ضمن مختلف السياقات المنتجة لها، ولا يتأتى ذلك إلاّ من خلال انفتاح الباحث على مختلف العلوم، والتطوير من مناهجه وأدواته البحثية، ومن ضمنها المنهج الكمي مناط ورقة المداخلة.
- أنّ في اعتماد المنهج الكمّي تعزيز لأساليب الباحث وأدواته في **الكشف عن حقائق تاريخية** جديدة، أو **تقويم بعض الأخطاء** التي انطلقت من أحكام عامة أو متسرعة، من خلال تحليل كمي عميق ومنظم للنصوص والمنطلقات[2].
- أمّا على المستوى التقني فقد أضحى استخدام الطرق الكمية في الفترة المعاصرة التي تشهد ثورة رقمية متسارعة، وما صاحبها من تطور في وسائط الاتصال، ووسائل العرض والإيضاح، ضرورة ملّحة يستند إليها المؤرخ في تقريب رؤيته البحثية من أقرب المسالك، وأوضح الأدوات وأكثرها إقناعا وحِجاجا[3].
- **المنهج الكمي بين الحاجة والصعوبات:**

وعليه، فعلى المؤرّخ في ظل هذه الثورة التقنية والمنهجية التي عرفتها المعرفة الإنسانية أن يواكب إفرازاتها، ويستفيد من نتائجها في بلورة أفكاره وتنويع أدواته المنهجية، في صورة المنهج الكمّي الذي أضحى لا غنى عنه في معالجة الظواهر التاريخية، إلاّ أنّ السؤال الذي يطرح نفسه: **ما طبيعة التكميم المطلوب من الباحث في التاريخ الإسلامي الوسيط؟**

هل يستطيع المؤرّخ في ظل الثورة التقنية والمنهجية التي تغزو المعرفة الإنسانية أن يواكب إفرازاتها؟

ما هي الأدوات المنهجية التي تساعد المنهج الكمّي في معالجة الظواهر التاريخية، وأخيرا: **ما طبيعة المنهج الكمي ء المطلوب من الباحث في التاريخ الإسلامي الوسيط؟**

لعل الوصول لتوصيف الإجابة عن هذا التساؤل نبسط له من خلال أن ما يحتاجه المنهج الكمي هو الأرقام التي تقتضي تفعيل المنهج، وهو المطلوب في وجود الأرقام لأيّ عمل إحصائي هو شرط لازم وأنّ نجاح هذا العمل من خلال تطبيق آليته يتوقف على الجانب المعري الذي يعتمد الدقة في الرصد، وأكثر من ذلك مسار التناسق في الأرقام التي جُمعت، ومراعاة منسوب عدم التجانس، وقلة الانتظام[4].

---

[1] محمد تضغوت، المرجع السابق، ص: 53

[2] نفس المكان.

[3] مصطفى زايد، المرجع السابق، ص: 76

[4] عبد الله العروي، المرجع السابق، ص: 137

ولعل ميزة السلاسل العددية التي يُستند إليها في هذا النمط من الإحصاء الذي يمكن أن نسميه بـ **"التكميم الطبيعي"**، من منطلق أنّ بياناته عادة ما تكون جاهزة، وهي في واقع الأمر أصلٌ في الوثيقة التي سيتعاطى معها، وهي عمل استغرقه المنهج التاريخي من حيث ترتيب زمن الأحداث، والتي ظهرت كمعطيات إحصائية مرقمة و مرتبة ومنظمة، و قد ترد أحيانا غير مباشرة، واستخراج ذلك، وترتيبه يعد عمل ميسور، يكتنف بدراية تكييف البيانات وتوزيعها، وهو ما يتماهى مع هدف الإحصاء، من حيث استعمال الكم الرقمي.

وقد تعترض الباحث بعض الصعاب، فمع وجود الأرقام وطبيعة السلاسل العددية، [1]، إلاّ أنّه أثناء العمل الإجرائي، يتعقد الأمر كلما رجعت بنا الأرقام في للوراء، إذ تبدأ السلسلة الرقمية في عدم التناسق عدديا، لكن يخلص في النهاية إلى **التاريخ بالعدد،** دون التاريخ **بمفهوم " التاريخ الكمي"** أكاديميا[2]، يراه البعض "إشارة إلى فلسفة محددة عن التاريخ والحدث والعلة، دون الإشارة إلى تقنية"[3].

صحيح أن مختلف المظان المصدرية في باقي أقطار العالم الإسلامي تكشف عن كثرة توظيف الأعداد والأرقام في مواضع متعدّدة من مضامينها، إلاّ أنّ التدقيق في صيغ ورودها والفضاءات التي وظّفت فيها، ينمّ عن أنّ معظمها تفتقد إلى خيط وصل بينها، لكونها جاءت مبعثرة وغير متناغمة، ويعسُر أن نربط بينها علائقيا في صورتها تلك.

وبناء على هذا المعطى نستشف بأنّ هذه الأعداد والأرقام لم تكن نتاجا لكمّ رقمي هادف، أو مبني على قواعد علمية منظمة، بل إنّ الغرض من سوقها على في رأي البعض[4] لا يخرج عن أمرين، إمّا تقريبا لصورة الخبر المنقول وزيادة في تشريحه، وإمّا أن يرد على سبيل التدليل والاستشهاد في سياق العرض الحدَثي الذي هو بصدده.

وفي هذا النمط من الإحصاء يفتقر الباحث إلى السلاسل الرقمية الجاهزة أو شبه الجاهزة التي تميّز الصنف الأوّل، وبخاصة في مجال العصر الوسيط والفترة القديمة، وعليه قد تصبح النتائج البحثية في طور التدقيق، يتوقف ساعتها توظيف المنهج الكمي في مساءلة مادته المصدرية، سدّ بعض فراغات البحث في الموضوع، أو تصفية بعض المعطيات والوقائع التاريخية التي تبتعد عنها المصداقية، في حاجة ملحة للجوء إلى ما يمكن أن نصطلح عليه بـ **" التكميم الاصطناعي "** في مقابل التكميم الطبيعي، فيعمل ساعتها التكميم الاصطناعي في حقل البحث التاريخي على تغطية افتقاره إلى السلاسل العددية المرتبة والمتجانسة بصناعة أعداد أو بيانات رقمية، عبر التحويل الممكن للمادة التاريخية الوصفية المتوفرة، إلى مادة قابلة للتحليل الكمي واجراء العمليات الحسابية[5].

---

[1] محمد تضغوت نحو تحديث دراسة، ص: 36

[2] نفس المكان.

[3] عبد الله العروي: مفهوم التاريخ، ص:137

[4] محمد تضغوت نحو تحديث دراسة، ص: 37 - 39

[5] عبد الله العروي، المرجع السابق، ص: 145

وختاما:

يدفع بنا تحليل الكم المتاح والمحين رقميا، بعمليات إجرائية تقوم على الجرد الإحصائي المنظم والمرتب يحسب ما اسعفته المصادر، لتحقيق إثبات الغائية من هذا الجرد، باستعمال آليتين:

1- توخي التزام النقد والتدقيق في الأرقام والإحصائيات وتجريد المعطيات التي أُنتجت فيها.
2- تحويل النصوص من الكيفي إلى معطى رقمي، وفي النهاية سنصل إلى نتيجة واحدة بيانات رقمية منظمة ومرتبة وصالحة للمعالجة البيانية، ولو أنّها تتفاوت في قيمتها العلمية، ومؤشر مصداقيتها، من موضوع إلى آخر.

قائمة مصادر الدراسة ومراجعها:

1. منى أبو الفضل، و طه جابر العلواني، نحو إعادة بناء علوم الأمة الاجتماعية والشرعية: مراجعات منهجية وتاريخية، دار السلام، القاهرة، 2009م.
2. الزويني ابتسام– ضياء العرنوسي – حيدر حاتم – المنهج وتحليل الكتب – دار صفاء للنشر والتوزيع عمان – الطبعة الأولى 2013.
3. عبد الله العروي ، مفهوم التاريخ: الألفاظ والمذاهب، ط4، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2004
4. مهدي محمد القصاص ، الإحصاء والقياس الاجتماعي، كلية الآداب ، جامعة المنصورة، 2007.
5. موريس أنجرس ، منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية، ترجمة: بوزيد صحراوي وآخرون، ط2، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2006.
6. عبد الرحمن بدوي ، مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط3ط، 1977م.
7. توما كرش عماد و آخران، علم الإحصاء، المعهد التقني نينوى، العراق، 2014.
8. مصطفى زايد ، التاريخ الكمي مع تطبيقات في التاريخ الإسلامي، القاهرة، 2000.
9. جميل صليبا ، «المعجم الفلسفي»، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1973م.
10. أحمد عبد السميع طبيّه ، مبادئ الإحصاء، ط1، دار البداية، عمان، 2008.
11. هيكل عبد العزيز فهمي ، مبادئ الأساليب الإحصائية، ط1، د .د.ن، لبنان، 1966.

12. مجمع اللغة العربية، «المعجم الفلسفي»، المطابع الأميرية، القاهرة، 1979م.
13. فتحي ملكاوي ،:المنهاج والمنهجية: طبيعة المفهوم وأهميته والمفاهيم والمصـــطلحات ذات العلاقة، في: المنهجية الإســـلامية، مجموعة مؤلفين، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ودار السلام، ج1، القاهرة، 2010م.